محاضرة مادة التذوق الأدبي الفرقة الرابعة – لغة عربية
ا.د. محمد أبوعلي ثلثا المادة بالإضافة إلي ملفات صوتية وفيديو
توجد علي جروب الواتس

أَسْبَابُ نَرْجِسِيَّةِ المُتَنَبِّي :

يرى المُتَنَبِّي نفسَهُ أعظم شاعر ؛ وذلك لأنَّه يَرَى نفسَهُ بمنظار آخر أدقّ من منظارنا , وهو مُحِقٌّ في ذلك ؛ « ففي كُلِّ شاعرٍ نصيبٌ من الغرور »، وتجويد الكلام نفسه يُغْرِي الشعراء بإظْهار هذا الاعتزاز الزائد بالنفس ؛ « لا لأنَّهُ مِنْ حَقَائِق نفوسهم دائماً ؛ بل لأنَّ الكلام يُوَاتِيهم فلا يقدرون على دفعه » .

قد ظهرت نرجسية المتنبي من خلال سلوكه في مفاخرة الآخرين والتعالي عليهم ، وقد كان على دراية بنرجسيته ؛ فرأى نفسه أعظم شاعر ، وشَعَرَ بالتميُّز في إبداعه وابتكاره .

والمُتَنَبِّي هو العبقريَّة التي أدهشت عصره وسائر العصور ؛ حتى إنَّ مُعَارِضِيه لا يملكون أمام شعره إلا الإعجاب والتأثُّر به ، لقد حَكَى صاحب المفاوضة فقال : « كان سيف الدولة يميل إلى أبي العبَّاس النامي الشاعر ميلاً شديداً إلى أنْ جاءه المُتَنَبِّي ؛ فمَالَ عنه إليه ؛ فغَاظَ ذلك أبا العبَّاس ؛ فَلَمَّا كان ذات يوم خَلا بسيف الدولة وعاتبه وقال : أيُّهَا الأميرُ ، لِمَ تُفَضِّل عليَّ ابن عِيدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ؛ فلجَّ وألَحَّ ، وطالبه بالجواب ؛ فقال : لأنك لا تُحْسِنُ أن تقولَ كقوله :

يَعُــودُ مِــنْ كُــلِّ فَــتْحٍ غيرَ مُفْتَخِرٍ
وَقَــدْ أَغَــذَّ إِلَــيه غَــيرَ مُحْــتَفِــلِ »

وأظنُّ أنَّ هذا يُثْبِتُ أنَّ صاحب المهارة والابتكار هو الأكثر نرجسيَّة من غيره ، إن نرجسيَّة المُتَنَبِّي أَصَّلَتهَا بيئته ، إلى جانب تركيبه النفسيّ الخاصّ ، الذي يتسم بالتعالي ، والشُّمُوخ ، والكِبْرِيَاء ، والغَطْرَسَة ، والشعور – المُبَالغ فيه – بالتفوُّق .

يرى **ألفرد أدلر** (Alfred Adler) أَنَّ كَثِيراً مِنَ المَوَاهِبِ وَالقُدْرَات – التي تَخْلُقُ الشخصيَّة النرجسيَّة – سببها الشعور بالدونيَّة والنقص .

إن نرجسيَّة الفنان المُبْدِع ليست ضارَّة على الإطلاق ؛ إنها نوعٌ من التنفيس ، الذي لا مفرَّ منه ؛ كي يستطيعَ المَرْءُ أن يتوافق مع نفسه من جهة ، ومع البيئة المحيطة به والمُحْبِطَة له من ناحية أخرى .

لقد دفعت وضاعة نسبه وفقره والمؤثرات الخارجيَّة المريرة التي أحاطت به ، والحياة القاسية التي عاشها وهو يشعر بالنقص ، دفعته إلى جُنُون العظمة ؛ فجمع بين أخاييل العظمة والنقص ؛ فظهرت نرجسيته التي ترجع لشعوره بالنقص .

أ) عَصْرُ المُتَنَبِّي :

نَشَأَ المُتَنَبِّي نشأته الأولى بالكُوفَة ، وكان يَتَرَدَّد إلى البادية والحَضَر ؛ فاكتسب من الأولى صلابتها وخشونتها وعُنْفَها ونزعتها البدويَّة ، ومن الأُخْرَى عُلُومها وثقافتها .

وما كاد يبلغ التاسعة من عمره ؛ حتى غزَا القرامطة الكُوفَة ، وسفَكُوا الدِّمَاء ؛ فَفَرَّ الناسُ جزعًا وفزعًا ، وهَرَبَ به أبوه إلى بادية السَّمَاوَة ، وعندما أكثر القَرَامطَة مِنْ غَارَاتهمْ على الكُوفَة ، غادرها إلى بغداد دُونَ رِضَا جدَّته بعد آخر ثورة ، أي في سنة 320هـ ، ولم تَطُلْ إقامته في بغداد . وفي سنة 350 هـ اتجه إلى الكُوفَة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القَرَامطَة .

وليس غريبًا أن تقول : إن الطفل يجد نفسه مدفوعًا إلى النمو والتطور طبقًا لنمط الحضارة السائد في عصره.

لقد عاصر المتنبي اضطرابا سياسيّا ، وصراعا قوميّا ، ودسائس وفِتَنا ؛ فتَكَوَّنَتْ شخصيته مُتَأَثِّرَة بِنَمَط حضَارته وعَصْره ؛ الذي كَثُرَ فيه المُغَامِرُونَ وأصحاب « المطامع والشهوات ، والقلاقل والدَّعَاوَى ؛ فلذلك لم يترك وديعة نفس ولا دخيلة طَبْع إلا حَفَّزَهَا واسْتَفَزَّهَا ، ورَجَّ وِعَاءَهَا ، كما تُرَجُّ القارورة لاختبار ما فيها ؛ فأبرزها للعين بِصِفْوِهَا وكَدَرِهَا ».

فقد وُلِدَ في « بيئة كان الدَّمُ يَصْبُغُهَا من حينٍ إلى حين ، كَانَ الدَّمُ يَصْبُغُهَا ثُمَّ لا يكاد يَجِفُ حَتَّى يُسْفَك دَمٌ آخر ، ولم يكن الدم وَحْدَهُ يصبغها ، وإنما كان يصبغها صِبْغٌ آخر ليس أقل نُكْرًا من سَفْك الدم ، هو النَّهْب والسَّلْب ، واستباحة الأَعْرَاض ، وانتهاك الحُرُمَات ، والاستخفاف بقَوَانين الخُلُق والدِّين » .

فقد اتسمت الحياة السياسيَّة بالثورات ، التي تهدف بالأساس إلى تحسين الوضع الاقتصاديّ ، وتقوية الشخصية الفرديَّة ، عن طريق تحريرها من القيود التي فَرَضَها عليها النظام الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ .

إنَّ الحياة الاجتماعيَّة التي نشأ فيها الصَّبِيُّ طَبَعَتْ نَفْسُهُ بطابع التناقُض ؛ لأنها كانت غاية في الاضطراب والتناقض .

ب) طُفُولَةُ المُتَنَبِّي الجَادَّة :

تنشط النرجسيَّة المَرَضيَّة – في رأي **كوت** – من التطوُّر الناجم عن عيوب معاملة الوالدين القاسية ، بوصفها طريقةً مِنْ طُرُق الدِّفَاع التعويضيَّة.

وقَدْ وُلِدَ المُتَنَبِّي بالكُوفة في محلة تُسَمَّى كِنْدَة ، فَنُسِبَ إليها ، وليس هو من كِنْدَة التي هي قبيلة ، بل هو جُعْفِي القبيلة ؛ فهو عَرِيقُ العُرُوبة ، ثم انتقل به والده إلى الشام ؛ فنشأ بها .

وقد أكثر المُتَنَبِّي من الاختلاف إلى الوَرَّاقِين ، وصَحِبَ الأعراب في البادية , ثُمَّ عَادَ إلى الكُوفة بعد سنين بَدَوِيًّا قُحًّا .

لَعَلَّ الذي أَزكى النَّخْوَة والأصالة العربيَّة عند المُتَنَبِّي نشأته بالبادية ؛ التي لازمها في صِبَاه ؛ لِيَسْلَمَ لِسَانُهُ من لُكْنَة العَجَم التي عَمَّت قُرَى العِرَاق وحَوَاضِره في ذلك الزمان . وليس غريبًا أن يخرج المُتَنَبِّي – الذي يبغي القُوَّة في كل شيء ؛ حَتَّى في اللغة – إلى البادية ؛ لأَنَّهُ يعلم

أَنَّ لغتها ما زالت وثيقة بالأصول ، وأهلها يتحدثون بالسليقة ؛ فمرادُهُ إتقان اللغة ، وكأنه يدرك أو لِنَقُلْ يتنبأ أن هذه اللغة ستكون سلاحَهُ في مُواجَهَةِ خصُومِهِ ، وما أكثرهم .

لقد لَمَحَ أَبُوه فيه علامات النُّبُوغ ؛ لذا سافر به إلى بلاد الشام ؛ « فلم يزل يُنَقِّلُهُ من باديتها إلى حَضَرِها ، ومِنْ مَدَرِها إلى وَبَرِها ، ويسلمه في المكاتب ، ويُرَدِّدُهُ في القبائل » ؛ حتى تُوُفِّيَ .

ولَعَلَّ مصاحبته للأعراب في البادية تُفَسِّر تلك الخُشُونة التي لازَمَتْهُ طَوَال حياته ، وقد لَفَتَ نَظَرَ النَّاسِ إليه – في هذه المرحلة المُبَكِّرة – بذَكَائه وحفْظه .

وقد نَشَأَ نشأةً بها من الجدّ ما يَفُوقُ أقرانه ؛ فَقَدْ تَوَلَّتْ جَدّته لأُمِّه أَمْرَ تَرْبِيَتِه ، وكانت مَعْرُوفة بأنها من صُلَحَاء النساء الكوفيات دَأَبها فِعْل الخَيرِ ، وقد وَصَفَها المُتَنَبِّي بأنها تَمْلِكُ رَأْساً وصَدْراً قد مُلِئَا حَزْماً ، وقد كان أَثَرُها بيِّناً في أول شعره , وقد ذَكَرَ المُتَنَبِّي خُلُقه في أَبياتٍ له منها :

وتَرَى الفُتُوَّةَ وَالمُرُوَّةَ وَالأُبُــ ــوَّةَ فِي كُلِّ مَلِيحَــةٍ ضَــرَّاتِهَا
هُنَّ الثَلاثُ المَانِعَــاتِي لَذَّتِــي فِي خَلْوَتِي لا الخَوفُ مِنْ تَبَعَاتِهَا

لقد تَرَبَّى على المعاملة القاسية الصارمة مِنْ جَدَّتِه ، وهي بمنزلة الأم والأب لديه ؛ فتَكَوَّنَتْ شخصيته النرجسيَّة ، التي ظهرت في جُنُون العظمة لديه ، وكبريائه ، والأنا المتعالية ، والطُّمُوح المُتَطَرِّف ، بوصفها وسائل دفاع تعويضيَّة عن معاملة جَدَّته القاسية .

لقد عاش يتيماً وقامت جَدَّتُهُ – التي أرادت أن تجعل منه رَجُلاً كبيراً ، وهو ما زال في طَورِ الطُّفُولة – بتربيته على القسوة والعُنْف ؛ فاكتسب هذه الصفات من صغره ، ودفعته قسوته إلى التفكير في نفسه أكثر من التفكير في الآخرين ؛ فظهرت نرجسيته ، التي تَمَثَّلَتْ في حُبِّه الشديد لنفسه ، منذ الطفولة ، ونشأ بعيداً عن مَظَاهِر الحُبّ والحَنَان والرِّقَّة ؛ فأَثَّرَ ذلك في شخصيته ؛ فهو غير قادر على الشُّعُور بالحُبّ ، وظَهَرَ ذلك في عدم ميله إلى النساء .

إنَّ العُنْف والاسْتِبْدَاد والإِهَانَة التي وُجِّهَتْ له مِنْ جَدَّتِه ، وعجزه عن إنجاز المَهَام الصعبة التي أسندتها إليه ، وتَحَمُّل الأحكام القاسية التي فرضتها عليه ، كُلّ ذلك خَلَقَ فَجْوَةً كبيرة بينه وبين بيئته ؛ فازدادت غربته النفسيَّة وعداوته للآخرين ؛ ممَّا جعله يلجأ إلى التعويض عن الشعور بالدونيَّة والعجز والضعف ، الذي يشعر به ، عن طريق النرجسيَّة ، التي ظهرت في شعره .

ومِمَّا سَبَق يتضح أَنَّ المُتَنَبِّي نشأ نشأةً جادَّة إلى أبعد الحدود ؛ فقد عاش يتيماً ، وقامت جَدَّته برعايته ، وكانت تُحبُّه كابنها ، وكان يبادلها الشعور نفسه ، وسَمَّاهَا (أُمَّاً) في رِثائه لها .

فأبو الطيب لم يكن بِحُكْم نشأته هذه مِثْل سائر الأولاد في سِنِّه ، بل رَبَّتْهُ جَدّته على العِزَّة ، والكِبْرِيَاء ، والخُشُونَة ، والثَّورَة ، ونستطيع أَنْ نَلْمَح هذا من خلال قصَّته وهو صغير في المَكْتَب ، وقد كانت له وَفْرَة مِنَ الشَّعْر تسيل على أُذُنَيه ؛ فقال له بَعْضُ أَقْرَانِه : (يَا أَحْمَد ، مَا أَحْسَنَ هَذه الوَفْرَة) ؛ فأجاب :

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَينِ يومَ القِتَال

عَلَى فَــتًى مُعْتَقِــلٍ صَعْدَةً يُعِلُّهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السِّبَــال

وقد علق محْمُود مُحَمَّد شَاكِر على هذين البيتين بقوله : « هو الرُّجولة والفُتُوَّة ، وبُعْد الهمَّة , وعِظَم المطلب , وانصرافه عن سفساف الأمور إلى معاليها , لا يعبأُ بلذةٍ لا تُجْدِي خيراً , ولا تُؤتِي ثَمَراً » .

إنَّ هذا الصَّبِيُّ لا يُشْبِهُ أقرانَهُ ، ويُرْجِعُ ذلك الاختلاف إلى أُسْرَتِه ، التي كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته ، وتأليف ذوقه ، وأنماط تفكيره ؛ فَإِنَّ الأُسْرَةَ إذا أحسنت التعامُل مع الطفل شبَّ صَالِحاً نَافِعاً لنَفْسِه ومُجْتَمَعِــه .

ومن المعروف أن خصائص الشخصيَّة وسماتها النفسيَّة تُمَكِّن الفَرْد من أن يعيش حياته ، وأن يُعَبِّرَ عن نفسه ؛ وهي ليست ميول مُورَّثَة.

ونرى ذلك في شخصية المتنبي ؛ فهو لم يَرِثْ خصائص شخصيته من أسرته ، لقد حَكَمَتْهُ طبيعته النرجسيَّة وعُقْدَتُهُ الأُولَى (عُقْدة جدّته في تضخيم رجولته) ، ويؤكد علْم النفس الحديث أنَّ الشخص النرجسيّ يُحبُّ أن يظهر بمظهر الجدّ ؛ لذا يُظْهِرُ عدم الميل إلى (الجِنْس) , والإعراض عن (الدُّعَابة والفُكَاهة) .

فَإِنَّ منَ الأَوصَافَ السُّلُوكيَّة للمَرْضَى النرجسيين – كما وَضَّحَ **كوت** – أنهم يُظْهِرُونَ نَقْصاً في الدُّعَابَة والضَّحك، وتَنْطَبِقُ هذه الصفات – إلى حدٍّ كبير – على شخصية المُتَنَبِّي الجادَّة الحَازِمَة البعيدة عن الدُّعَابَة والضحك .

ج) وَضَاعَةُ نَسَبِ المُتَنَبِي :

يُعْرَف والدَ المُتَنَبِّي بعيدان السقَّا ، ويقال إنه كان سَقَّاءً بالكوفة ، خامل الشأن ، وهذا ما دَفَعَ بعضُ الدارسينَ أن يجعلوا منه لُغْزاً , وجعل آخرين يُنْكِرُوا وُجُودَهُ ، أو يَحُطُّوا منْ شَأْنِه .

وقد لَبَّى والدُ المُتَنَبِّي نداءَ رَبِّه مبكراً ، وابنه ما زال في فَوَاتِح حَيَاتِه ، وقد تَرَعْرَعَ وشَعَرَ وبَرَعَ [i] ، ويبدو أَنَّ أُمَّهُ قد لَحِقَتْ به ، أو سَبَقَتْهُ بفترة قصيرة ، وكان لهذا اليُتْم كَبِيرُ أَثَرٍ في المُتَنَبِّي ؛ حيث عَلَّمَهُ تَحَمُّل المَشَاق ، وأخذ الحذر في معاملة الناس .

الجدير بالذكر أن المُتَنَبِّي لم يذكرهما في شعره رثاءً أو مدحاً أو فخراً ؛ فقد مَاتَا وهو حَدَثٌ صغير لا يُدْرِكُ منْ أمرهما شيئاً ، ولا يعرف عنهما إلا ما حكته جدَّته التي قامت على أمره . فإذا افترضنا أَنَّ أَحَدَهُمَا قد مات والمُتَنَبِّي في السادسة ، ثُمَّ قال الشعر – بعدُ – في الثامنة عشرة ؛ فيكون قد مرَّ على رحيلهما أكثر من عشر سنوات .

ولَمْ يفخر بأبيه ؛ لأَنَّهُ كان يَتَأَفَّف منْ مهنته ، وكثيراً ما هُجِيَ بمهنته تلك ، يقول أحد الشعراء :

عَاشَ حِينًا يَبِيعُ بِالكُوفَةِ المَا ءَ ، وَحِينًا يَبِيعُ مَاءَ المُحَيَّا

وهَجَاهُ ابن لنكك البَصْرِيّ حينما سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر ووقوع شعراء بغداد فيه ؛ فقال :

لَكِنَّ بَغْدَادَ جَادَ الغَيثُ سَاكِنَهَا نِعَالُهُمْ فِي قَفَا السَّقَّاءِ تَزْدَحِمُ

ثُمَّ إِنَّ أَبَاهُ لم يَكُنْ رجلاً ذا بالٍ في السياسة أو غيرها منَ الشؤون هذا من ناحية ، ومِنْ ناحية أُخْرى فلم يَكُنْ المُتَنبي يُحبُّ الفخر بأهله ، بل يفخر بِنَفْسِه وشَرَفِه ، ويَفْخَرُ قَومُهُ به .

فكيف يُطْلَب منْ مثْل هذا الرجل أن يتذكر أبواه بعد موتهما بفترة طويلة ، وغَالِبُ ظَنِّي أَنَّ الهَالَةَ التي صَنَعَها أَبُو الطَّيِّب في دُنْيا الشِّعر قد طَغَتْ على ذكر والِدَيه ؛ فقد انشغل بطَلَب المَجْد ، وأَولاهُ جُلّ اهتمامه .

وقد ذَهَبَ إلى أَنَّ نشأة المُتَنبِّي تُحيطُ بها غَوَامض يَعْسُر فَهْمَهَا ، ولا تُمَكِّن الأَخْبَارُ الموفورة من النَّفَاذ إلى خَفَايَاها، وانتهى إلى أَنَّ طُفُولَتَهُ « لم تكن طفولة عاديَّة مألوفة » ، وأَعْلَن شَكَّهُ في معرفة المُتَنبي لأُمِّه وأبيه ، وأَقَرَّ بأَنَّ « شُعُور المُتَنبِّي الصَّبِيّ بهذه الضَّعَة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأَدنيين ، قد كَانَ العُنْصُرُ الأَوَّلُ الذي أَثَّرَ في شخصيَّة المُتَنبِّي ، وبَغَّضَ إليه الناس ، وفَرَضَ عليه أَنْ يَرَى حياته بينهم لم تكن كحياة أَتْرَابِه ورِفَاقِه ، وإنما كانت حياةً يُحيطُ بها كثيرٌ من الغُمُوض ، ويأخذها كثيرٌ من الشُّذُوذ » .

وقد أَرْجَعَ رحيلَ المُتَنبِّي عن الكوفة إلى أنه « لَمَّا تَقَدَّمَتْ به السِّنُّ قليلاً ، قد عَرَفَ مِنْ أَمْرِ نَفْسِه ، ومِنْ أسرته ما أنكره ، ومَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقِيمَ مَعَهُ في الكُوفَة ؛ فَآثَرَ الرَّحِيلَ » .

إِنَّه يَشُكُّ في نَسَبِ المُتَنبِّي ، ويتهمه بأنه ابنٌ غيرُ شَرْعِيّ ؛ فيرى أَنَّ مَولِدَهُ كان شاذًّا ، وأن المُتَنبِّي نَفْسَهُ أدرك هذا الشذوذ ، وتَأَثَّرَ به في سيرة حياته .

لَكِنَّ مَوهِبَةَ المُتَنبِّي المرتبطة بحساسيته المُرْهَفَة لم تَكُنْ لتقبل بهذا الأصل الذي لا يَتَوَافَقُ معها ، وكان لا بُدّ لَهُ مِنْ أن يَرْفُضَ ذلك في أعماق نفسه ، بالكَبْت أو التَّعْوِيض أو التعالي والتسامي ؛ لذلك ففي شِعْرِ المُتَنبِّي منذ صِبَاه اعتزازٌ دائمٌ بِفِعْلِه لا بِنَسَبِه ، بِنَفْسِه لا بِأَصْلِه ، وقد فَخَرَ بقومه وآبائه في شعره دُونَ أن يذكر اسم رجل أو عشيرة أو قبيلة ، يقول في إحدى قصائد الصِّبَا :

لا بِقَومِي شَرُفْتُ ، بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَــرْتُ لا بِجُــدُودِي

إنه لا يَشْرُف بِقَومِه ، وإنما يَشْرُفُ قَومُهُ بِه ، ولا يَفْتَخِرُ بِجُدُوده ، وإنما يَفْتَخِرُ بِنَفْسِه ، وشَرَفِه ، وسَيفِه ، ورُمْحِه .

وقال في رثاء جَدَّته لأُمِّه :

وَإِنِّي لَمِنْ قَومٍ كَــأَنَّ نُفُوسَنَــا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالعَظْمَا

وقال في قصيدة الحُمَّى بمصر :

وَلَسْــتُ بِقَــانِعٍ مِــنْ كُلِّ فَضْلٍ بِــأَنْ أُعْــزَى إِلَى جَــدٍّ هُــمَامِ

إِنَّ إحساس المُتَنبِّي بوضَاعَة نَسَبِه يُطَارِدُهُ أينما حَلَّ أو اتجه ، وقد وَلَّدَ في نفسه نوعًا من التَّحَدِّي للذات والواقع لم تعرفه الشخصيَّة العربيَّة من قبل ، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ المَجْدَ والعظمة من العَدَم ، وهو يرى نَفْسَه فَوقَ قَومٍ يُفَتِّشُونَ عن نَسَبِه ، يقول :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الــ ــبَاحث وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

وَإِنَّمَا يَذْكُــرُ الجُــدُودَ لَــهُــمْ مَنْ نَفَــرُوهُ ، وَأَنْفَــدُوا حِيَــلَهْ

فَخْرًا لِعَضْـــبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَـــهْ وَسَمْهَـــرِيٍّ أَرُوحُ مُـــعْتَقِـــلَـــهْ

ومِمَّا يُدَلِّلُ على خُمُولِ نَسَبِه : اختلاف المؤرخين في تسمية أجداده ، وحرصه على كَتْم نَسَبِه إشفاقًا مِمَّا عَسَى أن يَكُونَ بين قومه والقبائل من عَدَاوة.

لقد وَقَفَ المُتَنَبِّي بالمرصاد لِكُلِّ مَنْ حَاوَلَ أن يُقَلِّلَ مِنْ قيمته ، ويَحُطَّ مِنْ نَسَبِه ، وكانت سِهامُ كَلِمَاته نَافِذَة ، ولا شَكَّ في أَنَّهُ حَطَّمَ مَنْ حَاوَلَ أن يُنَدِّدَ به ، لقد استطاع – بعظمته وشُمُوخه وكبريائه – أن يُحَوِّلَ الهزيمة إلى نصر ؛ بِأَنْ جَعَلَ نَسَبَهُ المُتَوَاضِعَ حافزًا يدفعه نحو بناء صَرْحِ العَظَمَة والمَجْد ؛ لأنه يعلم أنه لا مَالٌ لديه ، ولا نَسَبٌ يَسْتَنِدُ إليه ، وليس له من دنياه إلا قَلْبُهُ المُضْطَرِب ، وعَاطِفَتُه الجَيَّاشَة ، ونَفْسُهُ الأَبِيَّة التي جعلته يعيش في حالة دائمة من المعاناة ، أعطت لِشِعْرِه تَوَهُّجًا دائمًا .

د) فَقْرُ المُتَنَبِّي :

اختلف المُتَنَبِّي – على الرغم من حَالِ أَهْلِه المُتَوَاضِعَة – إلى كُتَّاب فيه أولاد أشراف الكُوفَة ، ولا رَيبَ في أَنَّهُ « تَحَمَّلَ تلك المضايقات التي يلقاها تلميذٌ فقير ضائع بين رِفَاقِه الأغنياء ، ولَعَلَّ في هذا اللقاء الأَوَّل مع الناس ، وإِنْ كُنَّا لا نبغي المبالغة في أهميته ، منشأ نُفُورَ المُتَنَبِّي من الناس ».

وإِنْ كانت يَدُ الرَّجُلِ خَاوِيَةً مِنَ المَال ؛ فَإِنَّ قلبَهُ عامرٌ بما هو أعظمُ سَطْوَةً وأَشَدُّ نَفْعًا مِنَ المال ، إنه الطُّمُوح الذي يَصِلُ إلى درجة الجُمُوح والثَّورة ، ذلك الطُّمُوح الذي هَدَمَ أركان الخوف الكامن في بعض جوانبه ، وجعله قادرًا على تحصيل المَجْد .

كان المُتَنَبِّي مُحِبًّا لِلمَال ، يَحْرِصُ على جَمْعِه ، وذلك رَاجِعٌ إلى « أيام صِبَاه ، يَومَ كَانَ لا يَجِدُ قُوتَ يَومِه ، فَعَلَّمَهُ ذلك قِيمَةَ المَال ، والشَّهْوَةَ إليه ، والحِرْص عليه » ، وقد أوصى بتدبير المال وتوفيره ؛ لأَنَّه وسيلةُ المَجْد وعِمَاده ، يقول :

فَـــلا يَنْـــحَلِلْ فِـــي المَجْدِ مَالُكَ كُلُّهُ فَيَنْحَـــلَّ مَجْـــدٌ كَـــانَ بِالمَالِ عَقْـــدُهُ

وَدَبِّـــرْهُ تَـــدْبِيرَ الـــذِي المَجْدُ كَفُّـــهُ إِذَا حَـــارَبَ الأَعْـــدَاءَ وَالمَالُ زَنْـــدُهُ

فَـــلا مَجْـــدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَـــالُهُ

وَلا مَـــالَ فِـــي الدُّنْيَا لِمَنْ قَـــلَّ مَجْدُهُ

وجَعَلَ المُتَنَبِّي هَمَّ الفَقْرِ يُذْهِبُ النَّومَ حين قال : « لا رَقْدَةٌ مَعَ الإِعْدَامِ »، وهي تَدَلُّ على ما يعتمل في عقله الباطن من تفكير وانشغال دائم بِأَمْرِ الرِّزْق ؛ فَإِنَّ المَجْدَ مرتبطٌ بالجَاه والمَال لا محالة ؛ فكيف تأخذه سِنَة النَّوم مَعَ الفَقْرِ !

وقد كتب **تارتاكوف** (tartakoff) عن المشغولين بالسعي وراء الاستحسان والثروة والقوة والمكانة الاجتماعيَّة وارتباطهم بالاضطرابات النرجسيَّة.

لقد دفعه الفقر إلي أن يسعى لتحصيل الثروة والأموال ، ومِنْ ثَمَّ القوة والجاه والمكانة الاجتماعيَّة ؛ ففقره من الأسباب البارزة في تكوين شخصيته النرجسيَّة .

يشكو المُتَنَبِّي فَقْرَهُ في شعره ، يقول في إحدى قصائد الصبا :

أَيــنَ فَضْــلِي إِذَا قَنِعْتُ مِــنَ الدَّهْــ ــرِ بِعَــيــشٍ مُعَــجَّــلِ التَّنْكِيدِ
ضَاقَ صَدْرِي ، وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزْ ـقِ قِيَامِــي ، وَقَلَّ عَنْهُ قُعُــودِي

إنه لا يَقْنَعُ مِنَ الدَّهْرِ بِعيشٍ قَدْ عُجِّلَ نَكَدُهُ ، وأُخِّرَ خيره ، لقد أجهد نفسه في طلب الرزق ، والسَّعْي لِكَسْبِه ، وطَالَ سَفَرُه وقِيامُهُ ؛ بُغْيَةَ كَسْبِ المَال ، ولكنه لم يجد – بعد كُلِّ هذا الجهد – من الرِّكَاب إلا نعلاً سوداء ، يقول :

وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوتُ أَمْشِي رَاكِبَــا

ويرى أَنَّ الغِنَى عند اللئيم قبيح ، ولَكِنَّ الفَقْرَ والعُسْرَ عِنْدَ الكَرِيمِ أشدّ قبحاً ، يقول :

وَالغِنَى فِي يَــدِ اللَّئِــيمِ قَــبِيحٌ قَــدْرَ قُبْحِ الكَرِيمِ فِــي الإِمْــلاقِ

وأرى أن قوله :

يَجْنِي الغِنَى لِلِّئَامِ لَو عَقَلُــوا مَا لَيسَ يَجْنِي عَلَيهِمُ العَدَمُ
هُمُ لأَمْوَالِهِمْ وَلَيــسَ لَــهُــمْ وَالعَارُ يَبْقَى وَالجُرْحُ يَلْتَئِمُ[1]

يُعبرُ عن إحساسه المُتَأَصِّل بالفقر ، وأثره الكبير في نفسه ، وحُزْنه الشديد من جَرَّائه ، ويظهر ذلك في قوله : (وَالعَارُ يَبْقَى) ؛ فهو لا يرى عاراً يَظَلُّ مُلازِمًا للإنسان ، ويُنَغِّصُ عَيشَهُ ، كالفقر .

ولا عَجَبٌ في ذلك ؛ فقد أذاقه الدهرُ مِنَ الفَقْرِ والغُرْبَة شيئًا لو ذاقه الدهر لبكى وانتحب ، ولم يَصْبِر عليه ، يقول :

أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا لَو ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا

وقد تَهَدَّجَ صوتُه قَائِلاً لِمَنْ لامَهُ في الفَقْر : لا تَلُمْنِي ، ولُمِ الدهرَ الذي أَتْلَفَ مَالِي :

لُمِ اللَّيَالِي التِي أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِي بِرِقَّةِ الحَالِ وَاعْذُرْنِي وَلا تَلُمِ

وقال في صباه :

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَــا يَبْتُــرُ الفَقْرَ قَاعِداً فَقُمْ وَاطْلُبِ الشَّيءَ الذِي يَبْتُرُ العُمْرَا
هُمَا خَــلَّتَانِ : ثَــرْوَةٌ أَو مَــنِيَّــةٌ لَعَلَّكَ أَنْ تُــبْقِي بِــوَاحِــدَةٍ ذِكْــرَا

إنه يَتَوَسَّلُ إِلَى الجَاهِ والسُّؤْدُدِ بِجَمْعِ المَال ؛ بوصفه وسيلةً لتحقيق آماله المفقودة ؛ فقد نشأ في أُسْرَةٍ فقيرة ؛ فأدرك أَنَّ الجاه والسيادة يحتاجان إلى سُلْطَان المال .

ويرى **أدلر** أَنَّ النُقُودَ لها قُوَّة فَعَّالَة ؛ فكثيرٌ من الأفراد يعتقد أنه قادر على تحقيق أيّ شيء عن طريق النقود ، وهذا يرجع إلى طموحه وغروره ، ولا شك في أن الاستحواذ على القُوَّة مرتبط – بِشِدَّة – بامتــلاك النقود .

فَإِنَّ سَعْي المُتَنَبِّي الحثيث وراء النقود ؛ من أجل الحُصُول على الجاه والسلطان ، صُورَة مِنْ صُوَرِ الغُرُور ، الذي يُفْضِي – بِدَوْرِهِ – إلى النرجسيَّة .

ويُوضِّح **أدلر** أن الطفل الذي يُعَانِي من أعباء اقتصاديَّة ، تَتَسَبَّب في إعاقته وتَبَنِّيهِ موقفًا مُعَادِيًا من العالم ، يُصبِحُ مَشْغُولاً بنفسه بدرجة كبيرة.

وقد عانى المتنبي من الفقر منذ صغره ؛ فكان هَمُّهُ الأول الحصول على المال ، وتَكَوَّنَ لديه موقفٌ مُعَادِيٌ مِنَ العالم ؛ فلقد أذاقه الفقر والغربة شيئًا لو ذاقه الدهر لبكى وانتحب .

هـ) تجاهُلُ الآخرين لَهُ :

جَعَلَتْ البيئةَ مِنَ المُتَنَبِّي نَرْجسيًّا ؛ فقد أَسْهَمَتْ – بوَجْهٍ مِنَ الوُجُوه – في تكوين نمط تعامُله مع الآخرين ، وإذا تَرَكْنَا طُفُولَة المُتَنَبِّي لِنَدْخُلَ في مَرْحَلَة الشَّبَاب ، أو قُلْ (مَرْحَلَة التجاهُل) سنرى أثر البيئة ظاهراً في شخصيَّته .

ويسأل طَه حُسين عن سبب رحلة المُتَنَبِّي إلى البادية : « فهل ارتحل لمجرد التبدِّي والاستفادة لجِسْمِه ولِسَانِه وفَنِّه الشعريّ من الإقامة بين هؤلاء العرب البادين ، الذين كان العلماء يختلفون إليهم , ويقيمون بين أظهرهم , يَأْخُذُونَ عَنْهُم اللُّغَّة ، ويَرْوُونَ عَنْهُم الشِّعْر والأيام والأساطير؟ أو هل ارتحل الفتى إلى البادية لشيءٍ آخر غير هذا يتصل بالحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة التي كانت محيطة به » .

ويرى أنَّ المُتَنَبِّي قد عاد مِنَ البادية وهو قرمطيّ الرأي ، متحفز أن يكون قرمطيّ السيرة أيضًا.

وأيًّا كان الأمر ؛ فَإِنَّ هذا الفتى كَبُرَ ومعاني الثورة – التي رَبَّتْهُ عليها جَدَّته – تمور في نفسه ، وتدفعه لالتماس طريقًا للتغيير ، أو بمعنى أكثر وضوحًا للوثبة على السلاطين .

ومن أجل ذلك خرج المُتَنَبِّي من الكوفة قاصدًا الشام ، وهو لم يتعدَّ السابعةَ عشرةَ من عُمْرِه ، ومَدَحَ كَثِيرِينَ لتحقيق المآرب والآمال ، التي كانت تملأ نفسه ، ولسان حاله يقول :

مُحِبِّي قِيَامِـــي مَا لِذَالِكُـــمُ النَّصْـــلِ بَرِيًّا مِنَ الجِـــرْحَى سَلِيمًا مِـــنَ القَتْلِ
أَرَى مِنْ فِرِنْدِي قِطْعَةً مِنْ فِـــرِنْدِهِ
وَجَودَةَ ضَرْبِ الهَامِ فِي جَودَةِ الصَّقْلِ

لَكِنَّ هذا الفتى العزيز النفس الثائر الطبع ، الذي يَظُنُّ أَنَّ الكون خُلِقَ مِنْ أجله ، إذا لم يَلْقَ شيئًا مِمَّا توقعه في ذهنه ؛ فَلا رَيبَ في أَنَّ الغَضَبَ سَيَبْلُغُ مِنْهُ مَبْلَغَهُ .

وغيرُ خافٍ أَنَّ الشخص النرجسيّ مِنْ أَهَمِّ سماته أنه يفقد صوابه تمامًا عندما يَشْعُرُ بالتجاهُلِ مِمَّنْ حوله ، ذلك التجاهُل الذي يُحِيلُهُ إنسانًا آخر لا يرى إلا نفسه ، إنَّ النرجسيَّة هنا رد فعل لا بُدَّ منه حتى لا يموت الشاعر كَمَدًا .

لقد أَخْفَقَ المُتَنَبِّي في هذا الأوان كثيراً ، ومَدَحَ مَنْ لا يُحِبّهم ، ثُمَّ لم يُقَدِّر الجميع شِعْر هذا الفتى على عكس ما توقع .

ولا نَعْرِفُ سَبَب سِجْن المُتَنَبِّي ، ولكنه ذَاقَ الذُّلّ والمهانة في تلك الفترة ؛ ومِمَّا قاله في السجن :

كُنْ أَيُّهَا السِّجْـــنُ كَيفَ شِئْتَ فَقَدْ وَطَّنْتُ لِلمَوتِ نَفْـــسَ مُعْتَـــرِفِ
لَو كَانَ سُكْنَـــايَ فِيـــكَ مَنْقَـــصَةٌ لَمْ يَـــكُنِ الدُّرُّ سَـــاكِنَ الصَّدَفِ

إنَّ هذه الأبيات مَحْضَ دِفَاعٍ عن النفس ؛ فهو يَعْرِفُ السِّجْنَ ، ومرارته ، وقدر ساكنيه ، لَكِنَّ طبيعته النرجسيَّة تَأْبَى أَنْ تُصَدِّقَ هذا ؛ إنها حيلَة نَفْسِيَّة دِفَاعِيَّة واضحة جدًّا .

إن التجاهل الذي عَانَى منه صغيراً ، ولَّدَ التقدير العالي لذاته ، الذي ظَهَرَ في جُنُون العظمة ، والسُّمُوّ بنفسه ، يقول :

وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الغَبِيِّ فَعَاذِرٌ أَنْ لا تَرَانِي مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

ويقول إنَّ أعداءه يتظاهرون بعدم معرفته ؛ مِنْ فَرْطِ حَسَدِهِمْ لَهُ وغَيظِهِمْ مِنْهُ :

وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ

لذلك نرى صرخاته النرجسيَّة وقد ازدادت عُنْفًا , وإيغالاً في المبالغة ؛ مِنْ فَرْطِ إعجابه بنفسه ، وإحساسه بالغُرْبَة في وطنه ؛ لأنَّ الناسَ لا يَعْرِفُون قَدْرَهُ ؛ فقارن نفسه بالمسيح بين اليهود ، وبصالح في ثمود ، كما نرى في قوله :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ كَمُقَامِ المَسِيحِ بَيْنَ اليَهُودِ

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـ ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

وقوله وهو صبيٌّ مغمور لا يعرفه أحد :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ؟ أَيَّ عَظِيمٍ أَتَّقِي؟

وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ الـ ـلَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

نرى المُتَنَبِّي – في هذه الأبيات – مضطرباً , ذا نبرة صوت عنيفة , وابتسامة خيلاء فارغة ، يَتَحَدَّى الآخرين ، ويرفع نفسه فوق الجميع ؛ ممَّا يُظْهِر حَمَاقته وغَيظه الشديد .

ويقول – في مدح عليّ بن أحمد بن عَامِر الأنطاكيّ – مفتخراً بنفسه ، معتزًّا بمواهبه ، مُشيداً بشجاعته :

أُطَاعِنُ خَيلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وَحِيداً، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ!

وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلامَتِي وَمَا ثَبَتَتْ إِلاَّ وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ

وَكَمْ مِنْ جَبَالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّنِي الـ ـجِبَالُ ، وَبَحْرٍ شَاهِد أَنَّنِي البَحْرُ

عندما يَشْعُرُ المُتَنَبِّي بالتجاهُل ، يُعْرِضُ عن المتجاهِلين بِعُنْف ؛ محاولاً استعادة ثقته بنفسه ، الأمرُ – إذن – حيلة دفاعيَّة ، يلجأ إليها الشاعر للتنفيس عن النزعات المكبوتة التي يَكْتُمُهَا في نفسه ؛ من جرَّاء إحساسه بالعَظَمَة والشُّمُوخ .

يوضح **أدلر** أَنَّ كثيراً من الأفراد يستخدمون طُرُقًا عديدة للتحايُل على المجتمع وتأكيد أهميتهم ؛ كالتعجرف والغطرسة ؛ فالشخص المُتَغَطْرِس مَا هُوَ إِلاَّ شخص يُعَانِي من عُقْدَة نَقْص ؛ فهو يُفَكِّرُ قائلاً لنفسه : مِنَ المُرَجَّح أَنَّ كثيراً من أفراد ذلك المجتمع المحيط سيحاولون تَجَاهُلِي والتَّقْلِيل مِنْ شَأْنِي ؛ ولهذا فمن الواجب عليَّ أن أسبقهم وأُرِيهِم مَدَى أَهَمِيَّتِي ، ومِنْ ثَمَّ يكون سلوكه الذي يتسم بالغطرسة ، وهذا السلوك ما هو الا وجه مِنْ وُجُوه النَّرْجِسِيَّة .

و) الشُّعُور بِالاضْطِهَاد :

أقبل أبو الطَّيِّب – في بداية هذه المرحلة – على بَدْر بن عَمَّار بن إسماعيل الأسديّ فرحاً مُسْتَبْشِراً بالخير ، الذي ينتظره في رِحَابِ ذَلِكَ الأَمير ، الذي ذهب إلى طَبَرِيَّة بأمر أبي بَكْر مُحَمَّد بن رائق « ليتولَّى حربها ، أي قيادة جيشها وحمايتها في سنة 328 ، وكان أبو الحُسين ، فيما نَظُنُّ ، عَرَبِيًّا مَاضِيًا كَالسَّيف , حُلْوَ الشَّمَائِل سَمْحًا , قَرِيبَ المَذْهَب مِنْ أبي الطَّيِّب في بَغضاء العجم ؛ لِمَا أَنْزَلُوهُ بالدَّولَة من التَّفْرِقَة والتَّمْزِيق ، وعرف أبو الطيب بعض أخباره ؛ فَقَصَدَهُ فَرِحًا , كأنما وَجَدَ فيه ما أراد من الفِكْرَة والسَّطْوة والسُّلْطان والقُوَّة ، والرجولة الفذَّة التي أبدع أبو الطَّيِّب في صفتها بعدُ حين أُعْجِبَ بها وفُتِنَ ».

وتَدُلُّ أَوَّلُ قصيدة مَدَحَهُ بها على مَا تَوَقَّعه – على يديه – من الفَرَح والنَّشْوَة ، يقول :

أَحُلْمًا نَـرَى أَمْ زَمَانًا جَـدِيدَا ... أَمِ الخَلْـقُ فِي شَخْصِ حَيٍّ أُعِيدَا
تَـجَلَّـى لَـنَا فَـأَضَأْنَـا بِه ... كَأَنَّـا نُـجُـومٌ لَقِينَـا سُعُـودَا

ولَقِيَ عِنْدَهُ – بالفعل – جُزْءًا مِمَّا أراد ، ولا شَكَّ في أَنَّ أَحْلَامَهُ الأُولى بَدَأَتْ تُلِحُّ عليه مرةً أخرى ؛ فقد أَحْسَنَ بَدْرٌ إقامته ، وأَحَبَّهُ ، وأَكْرَمَهُ ، والأخبارُ في هذا الشأن كثيرة , وبَدَأَ نَجْمُ المُتَنَبِّي يَسْطَعُ في هذه الفترة ، وعُرِفَ على نِطَاقٍ أوسع , وكان – كَعَادَتِهِ دوماً – معتزًّا بنفسه طَمُوحًا ؛ فلا عَجَبٌ في أَنْ يَكْثُرَ أعداؤه ، وينتشر حُسَّاده .

ومِنْ أشهر حُسَّاده ابن كروس ، وكان هذا الرجل أعور ، ويظنُّ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر أَنَّهُ مِنْ صَنَائِع العلويين أو الفَاطميين ، وقد هجاه المُتَنَبِّي في قوله :

أَرَى المُتَشَاعِرِينَ غَـرُوا بِذَمِّي ... وَمَنْ ذَا يَحْمَـدُ الدَّاءَ العُـضَـالا
وَمَـنْ يَـكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَـرِيضٍ ... يَجِـدْ مُـرًّا بِهِ المَـاءَ الـزُّلالا

ليس غريباً أَنْ يَسْمَعَ بَدْرُ بن عَمَّار لهذه الوشايات الكثيرة , ويُبْدِي نُفُوراً من المُتَنَبِّي , ولا عَجَبٌ في أن يُؤْثِرَ المُتَنَبِّي الرحيل أو الفِرَار – الذي يألفه – على هذه الحياة البغيضة مع هؤلاء المتشاعرين الأدعياء ، يقول :

أَنْكَرْتُ طَارِقَـةَ الحَـوَادِثِ مَرَّةً ... ثُمَّ اعْتَـرَفْتُ بِهَا فَصَارَتْ دَيدَنَا
وَقَطَعْتُ فِي الدُّنْيَا الفَلا وَرَكَائِبِي ... فِيهَا وَوَقْـتَيَّ الضُّحَى وَالمَوهِنَا

وقد ظَلَّ هؤلاء الواشون يُوغِرُونَ صَدْرَ الأَمير ، وكَادُوا « لِهَذَا الشاعر الطارئ الذي صَرَفَ عنهم الأَمير شيئًا , وهُمْ حِرَاصٌ عَلَى أَنْ يَخْلُوَ لَهُم وَجْهه , ليس مِنْ شَكٍّ في أن شيئًا مِنْ هَذَا قَدْ هَاجَ حَسَدَ الحُسَّاد على المُتَنَبِّي . وقد نستطيع أن نُضِيفَ إلى هذا ما يلائم طبيعة البيئة العِرَاقِيَّة التي انتقلت مع بَدْر إلى طَبَرِيَّة ؛ قد كانت هذه البيئة ماكرة في الكيد حقًّا ... وأيسر نظرة وأعجلها في حياة القصر البغداديّ , تُقنعنا بِأَنَّ الكيد كان قِوَام الحياة ... فليس غريبًا – إِذَنْ – أَنْ يَشْقَى المُتَنَبِّي بهؤلاء الكائدين , وألا يَطُول ابتهاجه بالإقامة عند هذا الأمير الذي كان يُقَدِّرُ أنه سيلقى عنده الأمن والهدوء وتحقيق الآمال » [ii] .

وبذلك عاد المُتَنَبِّي إلى سابق عَهْدِهِ من الحُزْن والانكسار الداخليَّ , وآثَر الرحيل حفاظًا على كبريائه وحياته ، ولا فرق بينهما عنده ، يقول :

لا افْتِخَارٌ إلاَّ لِمَــنْ لا يُضَــامُ مُدْرِكٍ أَو مُحَــارِبٍ لا يَــنَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُــلِ الهَــوَانُ عَلَيه مَا لِجُــرْحٍ بِمَــيِّــتٍ إِيــلامُ
ضَاقَ ذَرْعًا بِأَنْ أَضِيــقَ بِهِ ذَرْ عًا زَمَانِي وَاسْتَكْرَمَتْنِي الكِرَامُ
وَاقِفًا تَحْتَ أَخْمَصَيِ قَدْرِ نَفْسِي وَاقِفًــا تَحْــتَ أَخْمَصَيَّ الأَنَامُ

يمْضِي المُتَنَبِّي – بعد ذلك – في البلاد مادحًا الأمراء بفؤاد كليم ؛ حَتَّى جاءه خبر موت جدَّته العَجُوز ، وعندما جاءه الخبر استولت عليه الدهشة ، وأَحَسَّ بأَنه بَاتَ صديقًا للحُزْن ، وأراد أَنْ يُؤَكِّدَ لجدَّته المُتَوَفَّاة أنه مَا زَالَ عَلَى العَهْدِ الذي جَمَعَ بينهما ، نرى ذلك في قصيدته التي رثَاهَا بها :

لَئِنَ لَذَّ يَــومُ الشَّامِتِيــنَ بِمَوتِهَــا لَقَدْ وَلَــدَتْ مِــنِّي لآنَافِهِمْ رَغْــمَا
تَغَرَّبَ لا مُسْتَعْظِمًــا غَيــرَ نَفْسِه وَلا قَــابِــلاً إِلاَّ لِخَالِقِــهِ حُكْمَــا
وَلا سَالِكًــا إِلاَّ فُــؤَادَ عَــجَاجَــةٍ وَلا وَاجِدًا إِلاَّ لِمَكْــرُمَــةٍ طَــعْمَا
يَقُولُونَ لِي : مَا أَنْتَ ؟ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى

تؤكد هذه الأبيات يأس المُتَنَبِّي ؛ فهو الآن هذا الفارس الحزين الذي يعرف أنه ميِّت قَبْلَ دُخُوله المَعْرَكة , لَكِنَّهُ يدخل بكل شجاعة ، أو قُلْ تهوُّر ، في سبيل هدفه ومبتغاه الذي (جَلَّ أَنْ يُسْمَى) ، ونستطيع أَنْ نَقُول إِنَّ ما يريده المُتَنَبِّي ويسعى له – في نهاية الأمر – هو قتل الملوك المتخاذلين ، والاستيلاء على مُلْكِهم .

وهو لا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ في الرجاء ؛ ويُسَافِرُ في طلب المال والعُلا ؛ حتى لو دفع حياته ثمنًا لذلك .

يواصل المُتَنَبِّي رحيله ، لكنه – الآنَ – على حَظٍّ من الشهرة ، ولعلَّ أكبر دليل على هذا ما حَدَثَ له في طَرَابُلُس ؛ فهو « حين خَرَجَ مِنَ السجن مَدَحَ إسحاق بن كيغلغ والي حِمْص للإِخْشِيد ، ومُخْرِجهُ من السجن ، بقصيدته الرائية التي يقول فيها :

حَاشَى الرَّقِيبُ فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُه وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانْهَلَّــتْ بَــوَادِرُه

لم يستطع أَنْ يُنْشِدَهُ إياها ... لأَنَّ الأمير كَرِهَ ذلك ، وتقدم إليه في أن يبرح الأرض ... فقد كان إسحاق بن كيغلغ هذا ما زال على ولايته حين مَرَّ المُتَنَبِّي بطَرَابُلُس , كان قد انتقل إليها من حمْص ليبعد مستقره بعض البُعْد عَنِ الحُدُود بين الإِخْشِيديين والحَمْدَانِيين . فَلَمَّا انتهى المُتَنَبِّي إلى طَرَابُلُس وعَرَفَ مكانه , رَغِبَ في أَن يَمْدَحه كَمَا مَدَح غيره من عُمَّال الإِخْشِيديين وقُوَّادهم وأمرائهم . ونَظَرَ المُتَنَبِّي فإذا هذا الأمير الذي كان يَرْغَبُ عن شعره منذ اثنتي عشرة سنة يرغب في شعره الآن . فلا تَسَلْ عن كبرياء الشاعر , وما امتلأت نفسه به من الزَّهْو والغُرُور , وإذا هو يتمنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المَدْح الذي رَغِبَ فيه . ويحتال الأمير في ذلك فلا يُوَفَّق , وتَشُقُّ عليه هذه الإهانة ؛ فيُمسك الشاعر في طَرَابُلُس لا يلقيه في السجن ، ولا يُخَلِّي بينه وبين السفر ، وإنما يُمْسِكُهُ سجينًا كالطليق , وطليقًا كالسجين » .

لقد تَغَيَّرَتْ صُورَةُ المُتَنَبِّي الشاعر الصغير الخامل الذكر ، وصار هو الشاعر الذي يتسابق الأمراء كي يمدحهم .

وبهذه الصورة الجديدة يسير المُتَنَبِّي حَتَّى يَصِل إلى أَبِي العَشَائِر ، وهو من أمراء الحَمْدَانيينَ , وابن عَمّ سيف الدولة الحَمْدَانيّ ، وقد أقام أبو الطَّيِّب عنده ، وأَحَبَّهُ – على ما يبدو – ومَدَحَهُ بقصائدٍ رائعة , وقَدَّمَهُ أَبُو العشائر إلى سيف الدولة ؛ لِيُصْبِحَ المُتَنَبِّي شاعر بلاط سيف الدولة فيما بعد .